

نُشر هذا البحث في الندوة المنعقدة حول (سبل تطوير الرعاية الاجتماعية لكبار السن)، التي نظمتها
جامعة الدول العربية في الدوحة ١٢-١٣/١٠/١٤٢٩هـ الموافق ١٢-١٣/١٠/٢٠٠٨م.

منطلقات أساسية لفهم مرحلة الشيخوخة وكيفية التعامل معها

الدكتور/ عبد الله بن ناصر السدحان

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

ansadhan@gmail.com

دراسة مقدمة إلى الندوة المنعقدة حول (سبل تطوير الرعاية الاجتماعية لكبار السن)

الدوحة ١٢-١٣/١٠/١٤٢٩هـ الموافق ١٢-١٣/١٠/٢٠٠٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد
يلحظ كل مختص التزايد المستمر في عدد السكان على مستوى العالم، ومن ذلك تزايد أعداد كبار السن، ويرجع ذلك بعد تقدير الله عز وجل إلى التطور الصحي الذي يشهده العالم بشكل عام مع تفاوت نسبي في هذا الأمر بين الدول المتقدمة اقتصاديا وغيرها من الدول. فالرعاية الصحية المتقدمة تؤدي إلى تناقص الوفيات، وبخاصة بين الأطفال وهذا أدى بشكل مباشر على تحقيق زيادة سكانية في جميع الشرائح العمرية المختلفة من الهرم السكاني للعالم بشكل عام ولبعض الدول بشكل خاص. وفئة كبار السن ممن تشملها ذلك التزايد المطرد في العدد وبشكل واضح جدا، فتظهر مؤشرات الإحصاءات السكانية اختلال شكل الهرم السكاني في بعض الدول، وذلك بتضخم قمة الهرم السكاني ووسطه سنة بعد أخرى، حيث وصل الأمر في بعض الدول الغربية إلى درجة الاعتقاد بانقلاب الهرم السكاني ويعود ذلك بعد تقدير الله عز وجل إلى تزايد عدد كبار السن وقلة المواليد، وارتفاع معدل توقع الحياة (العمر)، وتطور الخدمات الصحية المقدمة إلى كبار السن. ونتيجة طبيعية لهذه الأمور نشأت الحاجة إلى الاهتمام بالمسنين.

إضافة إلى كل ذلك فإنه حسب تقارير الأمم المتحدة فإن التركيبة السكانية للعالم سيطغى عليها كبار السن، ويتوقع في الخمسين سنة القادمة أن يزداد عدد كبار السن نحو أربعة أضعاف. فبحلول عام ١٤٧٠هـ / ٢٠٥٠م سيكون هناك واحد من المسنين بين كل خمسة أشخاص وستنخفض نسبة الأطفال من (٣٣%) إلى (٢٠%) من جملة السكان.

ومما يلفت الانتباه أن النساء المسنات على مستوى العالم يفقن المسنين الذكور عددا، وعلى نحو متزايد في المراحل المتقدمة من السن، ويُقدر اليوم أن هناك (٨١) رجلا مقابل كل (١٠٠) امرأة فوق سن الستين، وتنخفض هذه النسبة أكثر عند سن الثمانين وما فوق لتصل إلى (٥٣) رجلا مقابل كل (١٠٠) امرأة. وسيترك هذا التحول الديموغرافي العالمي آثارا

عميقة على كل جانب من جوانب حياة الأفراد والمجتمعات المحلية والحياة على الصعيدين الوطني والدولي، كما سيتطور كل وجه من وجوه البشرية: الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والنفسية، والروحية.^(١)

ولهذا يرى بعض المختصين أن هذه المؤشرات التصاعدية سبب في ظهور تخصص علمي يسمى (علم اجتماع الشيخوخة)، وذلك إثر إنشاء مؤسسات لذلك العلم في عدد من الدول الغربية، حيث عُقد أول مؤتمر دولي عن الشيخوخة في بلجيكا والذي كان من أثره تأسيس الجمعية الدولية للشيخوخة، حيث تعقد مؤتمرات دولية حول الشيخوخة كل ثلاث سنوات، ثم تخصيص عام (١٩٨٢ م/١٤٠٢ هـ) سنة دولية للمسنين بدعوة من الجمعية العامة للأمم المتحدة لتركيز الجهد من أجل بحث قضايا المسنين ومناقشتها، ومعالجة مشكلاتهم، وزيادة الاهتمام برعايتهم.

وفي شهر يوليو من عام (١٩٩٦ م/١٤١٦ هـ) نظمت منظمة الصحة العالمية للمسنين اجتماعا دوليا في البرازيل، لوضع برنامج عمل عن الشيخوخة، وقد حضر هذا الاجتماع ممثلون عن إحدى وعشرين دولة، بالإضافة إلى عدد كبير من الخبراء والمختصين و انتهوا إلى إقرار ما يسمى (إعلان برازيليا عن الشيخوخة). وبعد ذلك قامت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتكرار تجربة تخصيص عام للمسنين وحددته بعام (١٩٩٩ م/١٤١٩ هـ) تحت شعار (نحو مجتمع لكل الأعمار)، وتضمّن مفهوم هذا الشعار أربعة أبعاد: التنمية طوال حياة الفرد؛ والعلاقات بين الأجيال المتعددة؛ والترابط بين شيخوخة السكان والتنمية؛ وحال كبار السن.

وعلى الرغم من ذلك التزايد العددي لكبار السن، إلا أن هذه المرحلة العمرية لم تلق حقها من الدراسة والأبحاث العلمية، فغالبا ما تتركز الدراسات على مرحلة الطفولة أو فترة المراهقة متناسين هذه المرحلة العمرية بما تحمله من تغيرات وتحولات لا تقل من حيث الأهمية عن مرحلة الطفولة أو مرحلة المراهقة في حياة الإنسان، ومما يحسن الإشارة إليه أن هذا

(١) تقرير الجمعية العالمية الثانية للشيخوخة مدريد، ٢٠٠٢، الأمم المتحدة، نيويورك، بدون تاريخ، ص ٨.

الضعف العلمي لمرحلة الشيخوخة يكثر في العالم الإسلامي والعربي بشكل أوضح، وإلا فإن الاهتمام بالشيخوخة وأبحاثها وحقوق كبار السن على المجتمع قد بدأ الحديث عنها في العالم الغربي (أوروبا وأمريكا) والتركيز عليها في الأربعينات الميلادية، وذلك بإنشاء جمعية الشيوخ في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٥م/١٣٦٥هـ، وصدر عنها مجلة تعنى بأمور الشيخوخة، ثم تبعتها في الاهتمام بالمسنين أوروبا وذلك بإصدار أول مجلة دورية في أوروبا تعنى بالشيخوخة عام ١٩٥٦م/١٣٧٦هـ (٢).

ولكن كان الضعف في الاهتمام بقضايا المسنين بشكل عام في دول العالم الثالث، إلا أن من المبشرات الإيجابية في الدول العربية ذلك التجاوب النسبي مع قضايا كبار السن وهمومهم. ومن ذلك عقد الندوات العلمية عن كبار السن، وتنظيم الحلقات والدورات التدريبية، وغني عن القول أن أي ندوة عن المسنين حينما تنعقد في عام معين فلا يعني ذلك أن العناية بالمسنين مرتبطة بهذه السنة فحسب، فهذا التصور مما يبعد عن خاطر الإنسان المسلم في هذه الدول فلقد حثنا ديننا الحنيف على توقير كبير السن دوماً وأبداً، كما أكد على احترام المسنّ لسنه، وشيئته حتى وإن كان غير مسلم فوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم حين بعثه الجيوش في أثناء الفتوحات الإسلامية وتعاملها الراقي مع كبار السن من غير المسلمين خير دليل على احترام الإنسان الكبير في الإسلام لإنسانيته أولاً، ثم لعمره وشيئته. وفي اعتقادي أن مثل هذه الفعاليات إنما هي عرض عملي للجهود التي تقدم لكبار السن، وتوضيح لجميع دول العالم عما لدينا كشعوب عربية ومسلمة من قيم إسلامية وأخلاقية رائعة نتعامل بها مع كبار السن طوال العمر وليس في سنة محددة.

ولعل من نافلة القول الإشارة إلى أن ما يقدم لكبار السن في الدول العربية والإسلامية يرتكز أساساً على عقيدة إسلامية متينة، وعادات أصيلة تحث على احترام الكبير، وتوقيره، وتقديمه في جوانب شتى من جوانب الحياة المختلفة.

وبداية نجد أن الإسلام يقر التغيرات التي تحدث في مرحلة الشيخوخة مما تناوله علماء الاجتماع، والنفس، والطب بالتفصيل، وهذا ظاهر في قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ

(٢) اضطرابات الشيخوخة وعلاجها، عبد الرحمن عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٩م، ص ١٠.

ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (الروم ٥٤). ولكنه في الوقت نفسه رتب بعض الأمور والخطوات العملية التي يمارسها المسلم وتعين على اجتياز هذه المرحلة بسلام، وإن كانت لن تخلو من العنت والصعوبة، ولكنه مرور بأقل درجة من العنت وعبور بسهله الله عز وجل لمن شاء من عباده. إن مما يُلاحظ حين الحديث عند قضايا مرحلة الشيخوخة واحتياجاتها التركيز على الجوانب: الاجتماعية، والنفسية، والصحية، والغذائية، والاقتصادية، وكل هذه الاحتياجات مهمة، إلا أنه مما يحسن التركيز عليه الاحتياجات الدينية لهذه الفئة، ((فمما لا شك أن تكثيف جرعات البرامج الدينية للمسنين، وقيام مختلف الخدمات وبرامج الرعاية على أساس ديني من شأنه أن يؤتي نتائج تختلف إيجاباً عن تلك البرامج والخدمات التي لا تتخذ من الدين أساساً لها، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى بعدين أساسيين: الأول، الظروف النفسية للمسنين، حيث يتأثرون بأي برنامج قائم على أساس ديني. والثاني، إقبال الأفراد والهيئات والمؤسسات المختلفة في المجتمع على تدعيم برامج برعاية المسنين، خاصة التي تنظم في مناسبات دينية. كما لوحظ أن برامج رعاية المسنين التي تعتمد على المدخل الديني تحقق هدفاً مزدوجاً، حيث يشعر المسنون بقيمتهم في المجتمع، وتبديل لديهم مشاعر الاغتراب والاكئاب النفسي عندما يشعرون أن المجتمع بأفراده وهيئاته ومؤسساته يوليهم اهتماماً خاصاً، كما أن فائدة هذه البرامج تنعكس على المشاركين فيها، حيث يشعرون بالرضا، لما يلمسونه من آثار إيجابية لهذه البرامج على المسنين، كما أن الجرعات الدينية المكثفة للمسنين تعطي الأمل في الحياة في نفوس المسنين فتجعلهم أكثر حرصاً على الحياة والمشاركة فيها والتزود بالأعمال الصالحة في فترة نهاية العمر))^(٣). وإضافة إلى ذلك يمكن القول أن من أسباب ضرورة الاعتماد على المدخل الديني في التعامل مع موضوع المسنين اعتبارين مهمين هما:

الأول: أن الاهتمامات الدينية تزيد عند الإنسان حين إقباله على مرحلة الشيخوخة وتقدمه

٣) التخطيط الاجتماعي لرصد وتلبية احتياجات كبار السن: مبادئ وموجهات، يحيى الحداد، المكتب التنفيذي لمجلس وزراء العمل والشؤون الاجتماعية بدول مجلس التعاون لدول الخليج، البحرين، ١٩٩٩م/١٤١٩هـ، ص ٤٨.

في سلم العمر، فمن الملاحظ زيادة الإقبال على العمل الأخرى لدى كبار السن لشعورهم باقتراب الرحيل وحرصهم على الاستعداد لما بعد الحياة الدنيا، وقد يصاحب ذلك الشعور بالتفريط في الأيام الخوالي من شباب العمر.

والثاني: أن المجتمعات في الدول العربية والإسلامية بعمومها تدين بالإسلام ولا يمكن تناول أيّ من القضايا الخاصة بالمجتمع دون ربطها بعقيدته التي يدين بها، ولا يمكن تجاهل أثر العقيدة الفعال في علاج كثير من مشكلات المسنّن الناجمة من التقدم في العمر سواء النفسية منها، أم الاجتماعية، أم الاقتصادية، أم الصحية.

وستكون محاور الدراسة على النحو الآتي:

أولاً: تعريف بمرحلة الشيخوخة.

ثانياً: التغيرات التي تحدث في مرحلة الشيخوخة.

ثالثاً: مقدمات أساسية لفهم مرحلة الشيخوخة.

د. عبد الله بن ناصر السدحان

ansadhan@gmail.com

أولاً: التعريف بمرحلة الشيخوخة

قسم علماء اللغة مراحل العمر في حياة الإنسان إلى أربع مراحل هي: سن الطفولة، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة. وتطلق العرب على من وصل إلى مرحلة الشيخوخة أسماء عدة فتقول: شيخ، وهو من استبان فيه السنُّ وظهر عليه الشيب، وبعضهم يطلقها على من جاوز الخمسين، وقد تقول (هرم)، وهو أقصى الكبر وتقول كذلك: (كهل)، و (مُسن) وجميع هذه الألفاظ تدل على كبر السن، إلا أن مرحلة الشيخوخة عند علماء اللغة تأتي بعد مرحلة الكهولة مع اختلاف بينهم في تحديدها بسن معين، فقال بعضهم: إن مرحلة الشيخوخة تبدأ بعد سن خمس وسبعين، وقال بعضهم: إنها تبدأ بعد سن الثمانين، وغالب أقوالهم أنها لا تقل عن السبعين عام.

ويمكن أن نلاحظ أن آخر هذه المراحل هي مرحلة الشيخوخة، أو الهرم، وهو الزيادة في كبر السن، وهو أرذل العمر وعدّ الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المرحلة آخر مرحلة قبل الموت، ففي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هراً مفنداً، أو موتاً مجهزاً..﴾^(٤)، وهذه المرحلة - مرحلة أرذل العمر - هي التي تتعوذ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يُرد إليها ففي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم الصحابة رضوان الله عليهم هذا الدعاء: اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن نرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر^(٥) وسبب ذلك ما فيها من الخرف، واختلال العقل والحواسّ والضبط والفهم، وكما قال الشاعر:

وجع المفاصل وهو أيسر — رُ ما لقيت من الأذى
ردّ الذي استحسنته والناس من حظي كذا
والعمر مثل الكأس ير سب في أواخره القذا

(٤) عارضة الأحوذى لشرح صحيح الترمذي، ابن العربي، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٩، ص ١٨٥.

(٥) صحيح البخاري، البخاري، دار القلم، ١٤٠١هـ، كتاب الدعوات، باب التعوذ من فتنة الدنيا.

ومرحلة الشيخوخة مرحلة عُمرية من عمر الإنسان، اختلف في تحديدها، ففي العديد من المجتمعات المتقدمة صناعياً تعد هذه المرحلة بداية من بعد سن الستين أو الخامسة والستين، وفي مجتمعات أُخر ينظر إلى من لديه أحفاد بأنه في مرحلة الشيخوخة. إلا أنه كثيراً ما يرتبط هذا اللفظ لدى المختصين بسن معينة وهو سن الستين، فيقال: المُسنُّ هو: من تجاوز عمره الستين.

ومن المعلوم أن هذه المرحلة العمرية نسبية وتتفاوت من فرد لآخر في كل مجتمع من المجتمعات، فبعض من بلغ هذا العمر أو تجاوزه قد يكون نشيطاً ولا تظهر عليه بوادر الكبر في السن أو الشيخوخة وتكون التغيرات التي تحدث في مرحلة الشيخوخة غير ظاهرة، والعكس كذلك فإننا قد نجد من هو دون هذا العمر وقد ضعف بدنه واشتعل رأسه شيباً، لذا نستطيع القول: أن العمر التاريخي للإنسان يُعدُّ معياراً غير دقيق لتحديد مرحلة (الشيخوخة).

ومن هنا نجد بعضهم يتخذ أكثر من مقياس لتحديد مرحلة الشيخوخة، فيتخذ العمر الزمني مقياساً يتعامل به مع عدد السنين، والعمر البيولوجي، وهو مقياس وصفي يتناول الجوانب العضوية للإنسان، والعمر الاجتماعي، ويتناول فيه الأدوار الاجتماعية التي يمارسها الفرد وعلاقاته بالآخرين في المجتمع ومع من حوله، وأخيراً العمر النفسي، ويحدد بالخصائص النفسية والتغيرات في سلوك الفرد وحاجاته ودوافعه.

وأياً كان الاختلاف، فمن المؤكد أنه ليس هناك حدّ فاصل واحد نستطيع القول عنده أن الإنسان قد دخل مرحلة الشيخوخة، خاصة إذا تعاملنا وفق المقاييس السابقة مجتمعة وهي: العمر الزمني، والعمر البيولوجي، والعمر الاجتماعي، والعمر النفسي. ولكننا نستطيع القول بأن مرحلة الشيخوخة هي المرحلة التي يصبح الفرد عاجزاً عن رعاية نفسه وخدمتها، إثر تقدمه في العمر، وليس بسبب إعاقة أو شبهها. وبهذا نخرج من إشكالية تحديد السن الزمني لمرحلة الشيخوخة الذي يتفاوت الناس فيه بشكل كبير.

ثانياً: التغيرات التي تحدث في مرحلة الشيخوخة

على الرغم من عدم المقدرة على تحديد حد زمني فاصل بين المرحلة المتوسطة من عمر الإنسان ومرحلة الشيخوخة إلا أنه يمكن القول أن من علامات مرحلة الشيخوخة ومن بوادرها ظهور عدد من التغيرات الجسمية، والصحية، والاجتماعية، والنفسية، والعقلية. ويمكن أن نجمع كل هذه التغيرات بوصف الضعف العام، قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) (الروم ٥٤). ووفق هذه الآية الكريمة فالإنسان في الحياة الدنيا يمر بثلاث مراحل رئيسية: ضعف، ثم قوة، ثم ضعف. فهناك: الضعف في مرحلة الطفولة، ثم القوة في مرحلة الشباب والرجولة، وأخيراً الضعف في مرحلة الشيخوخة، ولكن هذا الضعف الأخير متفاوت نسبياً بين البشر بعامه والمسلمين بخاصة، وسيوضح ذلك التفاوت بعد عرض موجز للتغيرات التي تصيب الإنسان في مرحلة الشيخوخة. ومن المعلوم أن المتغيرات الجسمية، والاجتماعية، والنفسية، والعقلية، والاقتصادية التي تحدث للإنسان في مرحلة الشيخوخة تتفاعل مع بعضها البعض وتؤثر كما تتأثر بغيرها من التغيرات الأخرى التي تحدث في هذه المرحلة، فهي لا تعمل في الإنسان بمعزل عن بعضها البعض ومن هذه التغيرات:

التغيرات الجسمية:

إن أول ما يصاحب مرحلة الشيخوخة التغيرات الجسمية والضعف الصحي والبدني بشكل عام، فتظهر بعض التغيرات المرئية على جسم الإنسان في حال تقدمه في السنّ مثل: تجعّد الجلد وجفافه، وثقل في السمع، وضعف في البصر والشم والحواس بشكل عام، وبطء الحركة، وترهل بعض العضلات، وتغير لون الشعر، كما أن هناك تغيرات جسمية غير مرئية مثل ما يحدث من ضعف في العظام، وانخفاض حرارة الجسم نتيجة لقلة الحركة، إضافة لارتفاع نسبة الإصابة ببعض الأمراض، مثل: ارتفاع ضغط الدم، والسكري، والقبض المزمن. وبالجملة فإن الإنسان في هذه المرحلة يكون معرضاً بشكل أكبر للأمراض.

التغيرات الاجتماعية:

تتعدد التغيرات الاجتماعية التي تصاحب مرحلة الشيخوخة وتتداخل مع بعضها البعض، إلا أن أبرز هذه التغيرات لدى المسنين هي: تقلص علاقاتهم الاجتماعية، إذ تقتصر على الأصدقاء القدامى ومن كان يسكن بقربه نظراً لصعوبة تنقلاته بسبب التغيرات الجسمية وهذا قد يؤدي إلى تقلص المكانة الاجتماعية للمسن، كما ينتج عن هذا التغير مظهر جديد في حياة المسن ألا وهو: الفراغ، والعزلة، والشعور بالغربة، وذلك نتيجة للانسحاب المتبادل بين المسن والمجتمع، وهو ما يسمى باغتراب المسنين عن المجتمع وهذا عائد إلى فقدان الأدوار الاجتماعية المتمثلة في رعاية الأبناء والأسرة، وبالجملة فإن المسن ينتقل من الاعتماد على النفس إلى الاعتماد على الآخرين، وهذه المظاهر الجديدة في حياة المسن تساعد على بروز التغيرات النفسية التي يلي عرضاً لها:

التغيرات النفسية والانفعالية:

ترتبط التغيرات النفسية بالتغيرات السابقة بشكل كبير، وإن كان ارتباطها بالتغيرات الاجتماعية يبدو واضحاً بشكل أكبر، وأبرز هذه التغيرات: تغير مفهوم الفرد عن ذاته، و بروز القلق، والاكتئاب، والملل في حياة المسن، كما يصاحب ذلك توهم المرض، وكثرة الشكوى، والإعجاب بالماضي، والعناد والشك، كما تتركز اهتمامات المسن حول الجوانب الشخصية، وقد يصل الأمر إلى الانطواء والانعزال عن المجتمع، كما أن «الاهتمامات الدينية تزيد مع التقدم في العمر»^(٦) وهذه ميزة إيجابية ينبغي أن تستثمر لصالح تكيف المسن مع التغيرات الجديدة في حياته.

التغيرات العقلية:

يُعد النسيان وضعف الذاكرة من أبرز مظاهر التغيرات العقلية التي تحدث في مرحلة الشيخوخة، وبخاصة المعلومات الحديثة، بخلاف المعلومات القديمة التي في الذاكرة، لذلك يحلو لكبار السن ترداد القصص التي حدثت له في شبابه، إضافة إلى ذلك يبدأ حَرَفَ

(٦) المتقاعدون: بعض مشكلاتهم ودور الخدمة الاجتماعية في مواجهتها، عبد العزيز الغريب، شركة مطابع نجد،

الرياض، ١٤١٦هـ، ص ٥٦.

الشيخوخة بالظهور لدى بعضهم، ويتمثل ذلك في تكرار الحديث مرات ومرات، وعدم التعرف على الأبناء والأقارب، كما تضعف القدرة على الإدراك والتعلم وتتصف هذه المرحلة بالتفكير البطيء. وليس معنى ذلك أن المسنّ غير قابل للتعلم، ولكنه يستطيع التعلم واكتساب مهارات وقدرات جديدة فقط يحتاج إلى وقت أطول مما يحتاجه غيره.

التغيرات الاقتصادية:

في مرحلة الشيخوخة يصل الإنسان إلى مرحلة التقاعد الوظيفي عند بلوغه السن النظامية، وغالبا ما ينخفض دخل المسنّ، وبالتالي يؤدي ذلك إلى عجزه عن تلبية العديد من الحاجيات الشخصية والأسرية، وبخاصة إذا اقترن ذلك بتوقع إصابة المسن ببعض الأمراض وما تحتاجه من زيارات للطبيب وإجراء الفحوص الطبية، وشراء الأدوية، فهو يعاني من انخفاض في الدخل مع تزايد في الأعباء المالية، ويصاحب تلك الاحتياجات الغلاء المتزايد للأسعار، وضعف القوة الشرائية للنقود في بعض الدول، وهذا قد يؤدي إلى العديد من الضغوط النفسية لدى كبار السن نتيجة ذلك العجز. ولقد أفاض الإمام ابن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) في وصف وتحليل مرحلة الشيخوخة والتغيرات التي تحدث فيها، ووصفها وصفاً دقيقاً بكل ما يصاحبها من تغيرات وركز في وصفه على التغيرات: الجسمية، والعقلية منها بخاصة، وكان ذلك قبل أكثر من ثمان مائة سنة، وأصبح له السبق العلمي على غيره من العلماء الذين كتبوا عن هذه المرحلة في العصور المتأخرة^(٧).

مرحلة التقاعد:

في وقتنا الحاضر يُعدُّ أكبر تغير يحدث في حياة كبار السن هو التقاعد من العمل، وبخاصة بعد انتشار الاعتماد على الأعمال الحكومية أو العمل في القطاع الخاص كالشركات والبنوك، وتناقص الاعتماد على العمل الخاص الشخصي، أو التجارة، أو المهن أو الحرف اليدوية الشخصية التي يمارسها الإنسان بنفسه دون ارتباط بجهة ما كما كان سابقاً،

(٧) انظر كتاب: تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر، ابن الجوزي، تحقيق: عرفة حلمي عباس، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢م. وكذلك: التربية والشيخوخة، دراسة للأبعاد التربوية لظاهرة الشيخوخة في فكر الإمام ابن الجوزي، حسن عبد لعال، مجلة رسالة الخليج العربي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، العدد ٤٨، ١٤١٤هـ.

والتقاعد في ابسط تعاريفه، هو: الحال التي يكون فيها الفرد مرغماً ليعمل أقل من ساعات الدوام المعتادة، ويكون جزء من دخله على الأقل من معاش التقاعد الذي اكتسبه نتيجة سنوات الخدمة، ومن هنا فالتقاعد يعني: خسارة الأجر الذي كان يحصل عليه من العمل وقد لا يعوضه إياه الراتب المعاشي الذي يستحقه من مدة خدمته، إضافة إلى خسارة المكانة الاجتماعية التي كان يشغلها بمركزه الوظيفي، فالتقاعد يُعدُّ نقطة تحول رئيسية وسمة مميزة لكبير السن ويحدث تغييراً جوهرياً عميق الأثر في حياته مما يؤدي إلى تقلص منظومة مكانته الاجتماعية، وعلى ذلك فالتقاعد كمفهوم اجتماعي يعني:

- تغير الوضع المهني للمسن.
- فقدان الكثير من الأدوار المرتبطة بالعمل سواء أكان ارتباطاً مباشراً أم غير مباشر.
- وجود وقت فراغ كبير وذلك عائد إلى عدم الارتباط بعمل معين.
- الحرمان من بعض المخصصات المالية مثل: الأجر الشهري، والبدلات الثابتة بأنواعها المختلفة التي كان يحصل عليها قبل التقاعد.
- الحرمان من المخصصات العينية: ومنها: السكن، والسيارة، وعضوية النوادي.
- الحرمان من امتيازات اجتماعية: ومن أهمها: النفوذ، وسهولة الاتصال المباشر بأصحاب السلطة والنفوذ، القدرة على قضاء المصالح لمن يقصده الخ.^(٨)

وتزداد هذه الأشياء في علاقة طردية مع المنصب السابق قبل التقاعد فكلما كان المنصب أكبر، كان فقدان أكبر، وعادةً ما ينظر إلى التقاعد على أنه حدث في حياة الإنسان يرتبط ببلوغه سن الستين أو الخامسة والستين، إلا أنه أكثر من ذلك في واقع الأمر، ويحتاج معه كبير السن إلى جهد كبير للتكيف معه، «وتحتل عملية التكيف حيزاً كبيراً من حياتنا الاجتماعية وذلك من خلال ما نبذله من جهد فكري أو من خلال ما نصرفه من الوقت لكي نتوافق مع ما يصادفنا من مواقف جديدة، وعملية التكيف عملية مستمرة في مسيرة الحياة، فالجنين في بطن أمه يتحرك ذات اليمين وذات الشمال حتى يجد الوضع المريح، والطفل يحاول أن يتكيف مع ظروف أسرته الاقتصادية من خلال التنازل عن كثير من

(٨) دراسات في علم اجتماع الشيخوخة، عبد العزيز بن علي الغريب، دار الخريجي، الرياض، ١٤٢٤هـ، ص ١٣٣.

متطلباته، وعندما يدخل المدرسة يحاول أن يتكيف مع لوائحها ويمرّ الطفل بهذه العملية عاما بعد عام. وعندما ينتهي من الدراسة شاباً ثمّ ينتقل إلى مجال العمل حيث يجب عليه أن يتكيف لظروف العمل ومتطلباته، وبعد أن يمضي العديد من السنوات يودع العمل ليستقبل مرحلة جديدة هي مرحلة التقاعد وعليه أن يتكيف مع ظروفها وطبيعتها^(٩)، فالتقاعد مرحلة من المراحل التي يعيشها الإنسان إلا أن الاستجابة لها والتكيف معها يختلف من فرد إلى آخر فهناك من يستقبلها في مسرة ورضا، وهناك من تقع عليه وقوع الكارثة وقد تؤدي البعض إلى الدخول في دوامة من المشكلات الاجتماعية، والنفسية، والاقتصادية، والصحية.

(٩) المتقاعدون، مرجع سابق، ص ٢٦.

ثالثاً: منطلقات أساسية لفهم مرحلة الشيخوخة

هناك العديد من المنطلقات الرئيسية في موضوع الشيخوخة يحسُن التعرف عليها من قبل الذين يتعاملون مع كبار السن، حيث يمكن من خلالها تفهم العديد من المواقف، والصعوبات التي يمرون بها، ومن ثم يسهل التعامل معه، وبعض هذه المقدمات تُعدُّ من المسلمات الشرعية، كما أن الإمام بهذه القواعد أو المقدمات يفسر لنا كثيراً من التغيرات التي تظهر على الإنسان في مرحلة الشيخوخة وهذا التفسير يجعل مهمة من يتعامل مع كبير السن سهلة إلى حد كبير بحيث يؤدي إلى تحقيق مطالب المسنّ دون تبرم أو ضيق. كما أن التعرف يساعد كثيراً في التخفيف من حدة أثر المتغيرات التي يمر بها كبير السن، ويمكننا الاستفادة منها في مصلحة المسنّ نفسه لجعله بتعايش بتكيف كبير مع المرحلة الجديدة التي وصل إليها، ومن هذه المنطلقات الآتي:

١- الإنسان مخلوق مكرم، ومكانته محترمة في الإسلام:

لقد أسجد الله ملائكته للإنسان حين خلقه، قال تعالى: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) (ص: آية ٧١ - ٧٤)، وهذا السجود سجود إكرام، وإعظام، واحترام كما ذكر المفسرون، وجنس الإنسان مكرم، وله منزلة خاصة بين مخلوقات الله عز وجل، قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء، آية: ٧٠)، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض ملائكته) (١٠)، ومن هذه الآيات وهذا الحديث يتبين أن الله - عز وجل - قد كرم الإنسان على كثير ممن خلق وفضله. كما خصه بميزة جعلته من أشرف المخلوقات، وهي العقل.

ومن هنا، فالإنسان مكرم له منزلته المحترمة، وله كرامته المصونة المعترمة، وكبير

١٠ (١) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، حديث رقم ٣٩٤٧.

السن له حق في هذا التكريم، ومما يزيد في تكريمه الضعف الذي يعيشه بسبب التغيرات التي يمر بها في آخر حياته، فلا يجوز المساس بحياته أو إهمالها بحجة أنه عاجز وغير منتج، أو غير نافع للمجتمع، أو أن رعايته مكلفة، أو غير ذلك من الأعدار التي تبرر التهرب من رعايته، أو المحافظة على صحته.

٢) كلما تقدم الإنسان في العمر زاد لديه حب البقاء وطول العمر:

إن الرغبة في الحياة وإن كانت مشتركة بين عموم الناس وبمختلف مستوياتهم العمرية إلا أنها تظهر بجلاء لدى كبار السن، ففي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الشيخ يكبر ويضعف جسمه، وقلبه شاب على حبّ اثنتين: طول الحياة، وحب المال)^(١١)، بل هناك علاقة طردية بين الزيادة في العمر والرغبة في الحياة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان حب المال وطول العمر)^(١٢)، فالشاب أو صغير السن وهو يعيش زهرة شبابه قد لا يشعر بأن مصيره قد اقترب كما يشعر به المسنّ لذلك نجد أن الرغبة في الحياة وطول الأمل تزيد لدى الإنسان في مرحلة الشيخوخة. وقد سئل أحد الحكماء: ما بال الشيخ احرص على الدنيا من الشاب؟ فقال: لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب. وهذه الرغبة القوية في حب البقاء وطول العمر، قد تفسر لنا كثرة الشكوى من المرض أو توهمه أحياناً لدى كبار السن.

٣) طول العمر من السعادة وهو أمر محبوب في الإسلام:

إن الإسلام حين يقرر أن كبير السن هو أحرص الناس على البقاء في الحياة فهو يؤكد في الوقت نفسه أن المؤمن لا يزداد في عمره إلا ويكون خيراً له، ففي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً ﴾^(١٣).

(١١) المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق عبد الله الدويش، دار الفكر، ١٤١١هـ-١٩٩١م، جزء ٣، ص ٢٣٤.

(١٢) صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد اعذر الله إليه.

(١٣) صحيح مسلم بشرح النووي، النووي، دار الخیر، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، جزء ٦، ص ١٨٠.

يضاف إلى ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا لبعض أصحابه بطول العمر، ولو كان طول العمر شراً للمؤمن، أو سوءاً له ما دعا به الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه، ولما شرع لأمته من بعده أن تدعو به، ففي الحديث الذي يرويه أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له فقال: (اللهم أكثر ماله وولده، وأطل حياته، وأغفر له) ^(١٤)، ولقد طالت حياة أنس رضي الله عنه، وعاش بعد هذه الدعوة، وتوفي وعمره قد جاوز المائة عام. ولذا استدلل كثير من العلماء بهذه الأحاديث لجواز الدعاء للإنسان بطول العمر.

٤) يُزاد في عمر المسلم بسبب بعض الأعمال الصالحة:

وكما قرر الإسلام أن المؤمن لا يزاد في عمره إلا كان خيراً له فقد دلنا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بعض الأعمال التي بسببها يطول عمر الإنسان، وعدد إطالة العمر جزاء لهذه الأعمال الفاضلة، ومن ذلك: بر الوالدين، وصلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار، وتقوى الله. فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أحب أن يُيسر له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه) ^(١٥). قال ابن حجر: يُنسأ له في أثره أي: يؤخر في أجله ^(١٦)، وقال الترمذي: يُنسأ له في أثره أي: الزيادة في العمر ^(١٧). وحدثت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنه من أعطى حظّه من الرفق، فقد أُعطي حظّه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار) ^(١٨)، وروى سهل بن معاذ عن أبيه رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من برّ والديه طوي له، زاد الله -

١٤) الأدب المفرد، البخاري، تحقيق: كمال الحوت، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ، ص ٢٢٣.

١٥) صحيح البخاري، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٢٣٢.

١٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، بدون تاريخ، ج ١٠، ص ٤١٦.

١٧) عارضة الأحوذى، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٥٠.

١٨) المسند، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٥٠٤. وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم ٥١٩.

عز وجل - في عمره^(١٩).

ولقد فسّر بعض العلماء رحمهم الله زيادة العمر بأنها البركة في العمر، وبعضهم أوّلها بالذكر الحسن بعد وفاة الإنسان فلا يضمحل ذكره في الدنيا سريعاً، وبعضهم قال: هي الذرية الصالحة يدعون له من بعده. وقال بعض العلماء: إن الزيادة في العمر: نفي الآفات، والزيادة في الأفهام والعقول والبصائر، كما قيل إن المقصود بزيادة العمر السعة في الرزق واليسار والزيادة فيه. والذي يترجح أن المقصود بالزيادة في العمر الواردة في الآثار السابقة أنّها على حقيقتها أي زياد فعلية في عدد السنين التي يعيشها الإنسان، لكثرة القائلين به من الصحابة، والتابعين^(٢٠).

٥) تعلق المسن بالماضي والحين إلى ذكرياته وكثرة الحديث عنه:

يميل كبار السن عادة إلى ذكر فضائل الماضي ومحاسنه، والسبب في ذلك أن تلك الفترة التي يذكرها باستمرار ولا يمل من تذكرها وتكرارها تُعدُّ فترة الإنجاز عنده، وهي فترة الشباب، والحيوية، والنشاط، والقوة البدنية، والنفسية، والاجتماعية، كما أن هذه الفترة مرتبطة بذكريات غالباً ما تكون عزيزة على النفس ولا يمكن بحال من الأحوال أن تعود، ولا يمكن أن تعوض كذلك وهذا ما يزيد من التعلق بها واسترجاعها في الذهن أولاً ثم الحديث عنها بتحنان وتحسر وبشكل دائم ومتكرر.

ومما يلاحظ أن ذاكرة المسن فيما يتعلق بالماضي تظل في الغالب قوية وعلى الرغم من الشائع في الأذهان هو أن الشيوخ ضعاف الذاكرة، إلا أن هناك ذاكراً متعددة لدى الإنسان وليس ذاكرة واحدة فحسب، فبعض الذاكرات قد تضعف لدى الشيوخ، دون باقي الذاكرات. ولعل ذاكرة الطفولة، وهي الأحداث والأشخاص المرتبطين بذهن الشيخ في عهد الطفولة وفي عهد المراهقة والشباب تزداد قوة، والإنجازات التي يصنعها الإنسان تظل محفورة في الذاكرة، ولا تمحي بسبب كثرة ما ترد على الذاكرة من وقت لآخر واسترجاعها مرات

(١٩) الأدب المفرد، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٢٠) رعاية المسنين في الإسلام، عبد الله بن ناصر السدحان، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ، ص ٢٩.

عديدة، لأن الإنسان يجد في روايتها للآخرين متعة كبيرة (٢١).

إن مما لاشك فيه أن فخر المسن بتجاربه السابقة واعتزازه بإنجازاته في الماضي يُعدُّ وجهاً من وجوه النشاط التعويضي النفسي الذي يمارسه، فهو يريد أن يؤكد لمن حوله أن له تاريخاً جميلاً وعزيزاً على نفسه، وأن له سطوراً مشرقة سطرها في سابق أيامه يستحق عليها التقدير والاحترام الآن بعد أن تقدم به السن، كما يعتبر كل ذلك مما يستحق من أجله أن يحتفظ بمكانته في المجتمع، كما يرى أنه قد أسهم في صنع الحاضر الذي يتمتع به غيره، وله على من حوله واجب عليهم أن يقوموا به تجاهه وذلك باحترامه وتقديره.

٦) للمسنُّ المسلم مكانة متميزة في المجتمع:

وهذه المكانة المتميزة بما ألبسه الله من ثياب الوقار بشيبه، وبسبب الضعف الذي يعيشه في أواخر أيامه فقد روى كعب بن مرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة) (٢٢)، وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن، غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط) (٢٣). كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهي عن نتف الشيب، وقال: (هو نور المؤمن)، وقال: (ما شاب رجل في الإسلام شيبة إلا رفعه الله بها درجة، ومحيت عنه بها سيئة وكتبت له بها حسنة) (٢٤). فهذا الشيب الذي هو سمة كبير السن نهي الإسلام عن إزالته باعتباره نعمة من نعم الله على الإنسان في هذه المرحلة، وما ذاك إلا تذكير للإنسان أن هذه المرحلة التي يعيشها رغم ما فيها من ضعف وعنت إلا أنها محطة تكريم ومترلة خاصة له وهذا الشيب دليل على ذلك.

(٢١) بعض الخصائص الاجتماعية والنفسية للمسنين: دراسة في كتاب (المعمرين) لأبي حاتم السجستاني، عبد الرزاق

الزهراني، في (ندوة الرعاية الشاملة للمسنين) وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، الرياض، ١٤٢٠هـ، ص ٥٣.

(٢٢) عارضة الأحوذني، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣٠، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢٣) الأدب المفرد، مرجع سابق، ١٣٠.

(٢٤) صحيح سنن ابن ماجه، الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ، ص ٣٠٤.

وللضعف الذي يعيشه المستنون نجد أن الإسلام قد راعاهم في بعض الأحكام
الفقهية، ورتب على ذلك أحكاماً تتصف باليسر مراعاة لضعفهم، ومن ذلك الترخيص
للمسن العاجز إنابة من يحج عنه، ففي الحديث: إن امرأة من خثعم استفتت رسول الله صلى
الله عليه وسلم في حجة الوداع فقالت يا رسول الله إن فريضة الله على عباده أدركت أبي
شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة فهل يقضي أن أحج عنه قال: (نعم) (٢٥)،
إضافة إلى الرخصة للشيخ الكبير بالإفطار في شهر رمضان حين عجزه، والإطعام عن كل
يوم مسكيناً، فيروي البخاري أن ابن عباس رضي الله عنه كان يقرأ قوله تعالى (يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا
مَعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ
فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)
(البقرة، آية: ١٨٣-١٨٤) قال ابن عباس ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا
يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً. (٢٦)

وفي شأن الصلاة أمر النبي صلى الله عليه وسلم الأئمة الذين يصلون بالناس
بالتخفيف في صلاتهم مراعاة لمن خلفهم من الضعفاء وكبار السن. ففي الحديث أن النبي
صلى الله عليه وسلم أمر معاذ رضي الله عنه ألا يطيل صلاة العشاء فقال له: (يا معاذ أفтан
أنت أو أفتان ثلاث مرارا فلولا صليت بسبح اسم ربك والشمس وضحاها والليل إذا
يغشى فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة) (٢٧).

٧) لا يصل إلى مرحلة الشيخوخة من المسلمين إلا القليل:

من المعلوم والمقرر عند علماء الإسلام أن غالب المسلمين لا يصلون إلى مرحلة
الشيخوخة التي تحدث فيها هذه التغيرات المتعددة التي سبق ذكرها، وما يصاحبها من تدهور
صحي، وبدني، واجتماعي، ونفسي، واقتصادي. فإن القليل من المسلمين هم الذين قد

(٢٥) صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب المغازي، باب حجة الوداع.

(٢٦) صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب تفسير القرآن، باب قوله أيام معدودات فمن كان منكم مريضا.

(٢٧) صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الآذان، باب من شكأ أمامه إذا طوّل.

يصلون إلى هذه المرحلة المتقدمة من العمر وهي مرحلة الشيخوخة، ذلك أن أعمار المسلمين غالباً بين الستين إلى السبعين وفقاً لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: (أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك)^(٢٨). قال شراح الحديث: وهذا محمولٌ على الغالب بدليل شهادة الحال فإنَّ منهم من لم يبلغ ستين سنةً، ومنهم من يجوزُ سبعين كما أن اعتبار الغلبة في جانب الزيادة على سبعين واضحٌ جداً، فالظاهرُ أنَّ المراد به أن عمر الأمة من سنِّ الحمود الوسط المعتدل الذي مات فيه غالبُ الأمة ما بين العديدين، منهم سيّد الأنبياء وأكابر الخلفاء، كالصديق والفاروق وغيرهم من العلماء، ممَّا يصعبُ فيه الاستقصاء. وهذه المرحلة - الشيخوخة - كما ذكر في تعريفها أنه تبدأ بعد سن خمس وسبعين، وغالب أقوالهم أنها لا تقل عن السبعين عاماً، ومن هنا فإن التغيرات التي تحدث للإنسان في مرحلة الشيخوخة لا يمر بها الغالبية العظمى من المسلمين بسبب وفاتهم قبل ذلك العمر، فالقليل منهم يتجاوز سن السبعين، وهذا ملاحظ ومشهود.

٨) المسلم الملتزم بدينه في حياته لا يتعرض لمرحلة أرذل العمر:

يتضح مما ذكر من المتغيرات التي تصيب الإنسان في مرحلة الشيخوخة عظمة القرآن ودقة تصويره للحال التي قد يعيشها الإنسان في مراحل حياته، فيبدأ بضعف الطفولة، ثم قوة الشباب، وأخيراً ضعف الشيخوخة، كما تتبين دقة التصوير لهذه المرحلة بتأمل وصف الله عز وجل لها في محكم كتابه، وذلك بأنها عودة إلى أرذل العمر كما في قوله تعالى: (والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يردُّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليمٌ قديرٌ) [النحل: ٧٠]. وأرذل العمر كما ذكر المفسرون هو: آخر مرحلة من مراحل عمر الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وهو أحسنه وأدونه وآخره الذي تضعف فيه القوى، وتفسد فيه حواس الإنسان، ويحتل فيه النطق والفكر، ويحصل فيه قلة العلم وسوء الحفظ

(٢٨) المستدرک، الحاكم، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٢، ص ٤٢٧. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وذكره الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤١٥.

والخرف، وخصّه الله بالردّيلة لأنه حالة لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد^(٢٩).

إلا أن من المفسرين من ذكر أن بعض المؤمنين يُستثنون من حال الردّ إلى أرذل العمر. قال القرطبي رحمه الله: «إن هذا لا يكون للمؤمن - يعني الخرف والرد إلى أرذل العمر -، لأن المؤمن لا يُترع عنه علمه^(٣٠)، وورد عن ابن عباس رضي الله عنه قوله: «ليس هذا في المسلمين لأن المسلم لا يزداد في طول العمر والبقاء إلا كرامة عند الله وعقلاً ومعرفة»، كما نُقل عن عكرمة قوله: «من قرأ القرآن - أي حفظه - لم يُرد إلى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيئاً»^(٣١)، وقال طاووس: «إن العالم لا يخرف»^(٣٢).

وقال الشنقيطي في أضواء البيان عند تفسير الآية السابقة: «إن العلماء العالمين لا ينالهم هذا الخرف وضياع العلم والعقل من شدة الكبر، ويُستروح لهذا المعنى السابق من بعض التفسيرات في قوله تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) (التين: ٥-٦) وأن الاستثناء في قوله تعالى (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) يدل على أنهم لا يصلون إلى حالة الخرف وأرذل العمر، ولأن المؤمن مهما طال عمره فهو في طاعة وفي ذكر الله، فهو كامل العقل، وقد تواتر عند العامة والخاصة أن حافظ كتاب الله المداوم على تلاوته لا يُصاب بالخرف ولا بالهذيان. ثم استرسل في ذكر بعض الشواهد الواقعية التي شاهدها بنفسه وتدل على صدق ما ذهب إليه من أن حافظ كتاب الله المداوم على تلاوته لا يصاب بخرف الشيخوخة^(٣٣).

وهذا القول ليس بجديد، ولم يقل به الشنقيطي فقط، بل قال به عدد من أئمة الأمة، ومنهم: ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، وعطاء، والكلبي، وابن جرير الطبري^(٣٤). ومن ذلك

٢٩ فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر العربي، ١٤٠٣هـ، جزء ٣، ص ٤٣٧. وكذلك: أضواء البيان، الشنقيطي،

مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ، جزء ٣، ص ٢٨٥.

٣٠ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة، بدون تاريخ، جزء ١٠، ص ١٤١.

٣١ لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، جزء ٣، ص ٢٨.

٣٢ فتح القدير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ١٧٩.

٣٣ أضواء البيان، مرجع سابق، جزء ٩، ص ٣٣٤.

٣٤ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ج ٣٠، ص ٢٤٤.

أن السيوطي نقل عن عكرمة عند تفسير قوله تعالى: (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) (التين: ٥، ٦) أنه قال: ولا يتزل تلك المتزلة أحد قرأ القرآن - أي حفظه - . ونُقل عن محمد بن كعب القرظي قوله: من قرأ القرآن - أي حفظه - مُتَّعَ بعقله وإن بلغ من العمر مائتي سنة (٣٥).

وجزم الإمام ابن فورك أن صاحب البر تُنفى عنه الآفات في فهمه وعقله حال كبير سنه (٣٦). وكما يقول (جمال سعيد): إن العالم يكون أطول عمراً من غيره وهذا حق فقد ثبت بالإحصاء أن رجال الدين أطول أعماراً. (٣٧) ، ((ولا شك أن الجنون والعتة ونحوهما من صفات النقصان، فالله تعالى لا يبتلي كامل الإنسان أنبياء وأولياء، فالمراد بقولهم إن العلماء لا يعرض لهم العتة؛ وإن بلغوا إلى أرذل العمر علماء الآخرة، والعلماء بالله، لا مطلق العلماء كما لا يخفى، إذ قد شاهدنا من علماء زماننا من صار حاله إلى حال الطفولية. ثم إن أرذل العمر؛ وإن كان أشد الأزمان وأصعبها لكنه أوان المغفرة ورفعته الدرجة)) (٣٨).

وقد يكون عدم الرد إلى أرذل العمر بسبب أن غالب المسلمين لا تبلغ أعمارهم أكثر من السبعين وفق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك) (٣٩)، كما أن ذلك قد يكون بسبب ما ذكره العلماء والمفسرون و شراح الأحاديث التي سردت أقوالهم آنفاً.

٩) لا علاج لإعراض مرحلة الشيخوخة:

بقيت الإشارة في هذا الخصوص إلى أن هناك محاولات لعلاج أمراض الشيخوخة والهرم الذي يصيب بعض الناس في كبرهم، وهذه المحاولات تكثرت في العالم الغربي بشكل

٣٥) صفة الصفة، ابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت، ج ٢، ص ١٣٣.

٣٦) فتح الباري، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ٤١٦.

٣٧) تأملات في الألوان والغرائز والشيخوخة، جمال محمد سعيد، مكتبة زهرة الشرق، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٥٣.

٣٨) المعمرون، محمد أبي اليسر عابدين، دار ابن عابدين، دمشق، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص ١٢١.

٣٩) المستدرک، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٢٧. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وذكره الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤١٥.

واضح، وقد ينجرف معها بعض الأطباء المسلمين، إلا أن هذه المحاولات مكتوباً لها الفشل مسبقاً بنص حديث رسول الله صلى الله عليه وفيه أن الأعراب قالت: يا رسول الله ألا نتداوى؟، قال: (نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً إلا داءً واحداً قالوا: يا رسول الله وما هو قال: الهرم)^(٤٠). وفي الحديث الآخر وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل لم يزل داءً إلا أنزل له شفاءً إلا الهرم) الحديث^(٤١). قال شراح الحديث في كلمة (شفاء) أي دواء شافياً يجري العادة الإلهية.

ومن هنا يتضح أنه لا علاج للشيخوخة أو بمعنى آخر إيقاف التدهور البدني الذي يحدث في مرحلة الشيخوخة، وفق أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم السابق ذكرها، وإن كانت بعض الأبحاث تشير إلى إمكانية التأثير على سرعة حدوث بعض التغيرات الجسمية وتبطلتها^(٤٢)، إلا أن محاولة منعها بشكل كامل فذاك مما عجز عنه العلم حتى الآن، ولاشك أن هذا العجز سيستمر. ومما ينبغي ملاحظته أن التزام الإنسان المسلم لحدود الله، وحفظه للقرآن قد يؤخر حدوث ذلك التدهور البدني والعقلي، فلا تظهر إلا في الأيام الأخيرة جداً من حياة الإنسان فيبدو وكأنه لم يعيشها قياساً إلى عمره السابق، وقد يصل الأمر إلى الاعتقاد بعدم حدوثها.

١٠) توقير الكبير سمة من سمات المجتمع المسلم:

يتصف المجتمع المسلم بصفات كريمة منها: توقير الكبير في السن، وقد تواتر حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على إكرام الكبير، وتوقيره، ومن ذلك الحديث الذي أخرجه البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم) الحديث^(٤٣)، وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء شيخ يريد النبي صلى الله

(٤٠) الأدب المفرد، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٤١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، جزء ٢، حديث رقم ٥١٨.

(٤٢) التغيرات البيولوجية للمسن، فيصل الناصر، محاضرة غير منشورة، الدورة التدريبية للقيادات الإشرافية والتخطيطية العاملة في مجال المسنين، البحرين، ١٤١٨هـ، ص ١٦.

(٤٣) الأدب المفرد، مرجع سابق، ص ١٣٠.

عليه وسلم فأبطل القوم عنه أن يوسعوا له، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا) ^(٤٤)، وذكر بعض العلماء أن مقتضى هذه الصيغة وهي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ليس منا) التحريم، ومن العلماء من جعلها كبيرة من الكبائر. وبكل حال فكل هذه الأحاديث والآثار تدل دلالة أكيدة على أن منزلة المسنّ منزلة كبيرة لدى المجتمع المسلم، بالإضافة إلى أن توقيره واحترامه مما يتصف به المجتمع الإسلامي، وهي ركيزة أساسية ينبغي عدم إغفالها حين الحديث عن هذه المرحلة من العمر.

١١) إن جزاء الإحسان في الإسلام الإحسان:

قال الله تعالى: وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ، (النحل، آية: ٣٠) وقال كذلك في محكم كتابه: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (الرحمن: ٦٠)، أي هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق، ونفع عبيده، إلا أن يحسن خالقه إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير والنعيم والعيش السليم ^(٤٥). وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء) ^(٤٦). وتتجلى حكمة التشريع من خلال تأمل هذا الحديث فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما أكرم شابٌ شيخاً لسنّته إلا قيض الله له من يكرمه عند سنّته) ^(٤٧)، فهذا الحديث يبيّن أن إحسان الشاب للشيخ يكون سبباً لأن يقيض الله له من يكرمه عند كبره، ومن العلماء من قال: إن في هذا الحديث دليلاً على إطالة عمر الشاب الذي يكرم المسنّين ^(٤٨). قال ابن العربي: قال علماؤنا: في هذا دليل على أن الفتى إذا أكرم الشيخ كان ذلك علامة على طول العمر لقوله صلى الله عليه وسلم: (قيض الله له عند سنّته). وكما تدين تدان، فإن كان خيراً كان الخير بالخير والبادئ أكرم،

٤٤) عارضة الأحوذى، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٠٧.

٤٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٣ هـ، ص ٨٣١.

٤٦) صحيح مسلم، كتاب الصيد، حديث رقم ٥٠٥٥.

٤٧) عارضة الأحوذى، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٧٩.

٤٨) عارضة الأحوذى، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٠٩-١١٠.

وإن كان شراً كان الشر بالشر والبادئ أظلم.

والله الموفق

المراجع

- (١) اضطرابات الشيخوخة، عبد الرحمن عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٩م.
- (٢) أضواء البيان، الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- (٣) الأدب المفرد، البخاري، تحقيق: كمال الحوت، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- (٤) التخطيط الاجتماعي لرصد وتلبية احتياجات كبار السن، يحيى الحداد، المكتب التنفيذي لمجلس وزراء العمل والشؤون الاجتماعية بدول مجلس التعاون، البحرين، ١٩٩٩م.
- (٥) التغيرات البيولوجية للمسن، فيصل الناصر، محاضرة غير منشورة، الدورة التدريبية للقيادات الإشرافية والتخطيطية العاملة في مجال المسنين، البحرين، ١٤١٨هـ.
- (٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة، بدون تاريخ.
- (٧) المتقاعدون: بعض مشكلاتهم ودور الخدمة الاجتماعية في مواجهتها، عبد العزيز الغريب، شركة مطابع نجد التجارية، الرياض، ١٤١٦هـ.
- (٨) المستدرك على الصحيحين، الحاكم، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.
- (٩) المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق عبد الله الدويش، دار الفكر، بيروت، ١٤١١هـ.
- (١٠) بعض الخصائص الاجتماعية والنفسية للمسنين: دراسة في كتاب (المعمرين) لأبي حاتم السحستاني، عبد الرزاق الزهراني، في (ندوة الرعاية الشاملة للمسنين: الواقع والمأمول) وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤٢٠هـ.
- (١١) تأملات في الألوان والغرائز والشيخوخة، جمال سعيد، مكتبة الشرق، القاهرة، ١٩٩٨م.
- (١٢) تقرير الجمعية العالمية الثانية للشيخوخة مدريد، ٢٠٠٢م، الأمم المتحدة، نيويورك.
- (١٣) تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر، ابن الجوزي، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢م.
- (١٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ابن سعدي، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٣هـ.
- (١٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مكتبة مصطفى الباي الحلبي، مصر.
- (١٦) دراسات في علم اجتماع الشيخوخة، عبد العزيز الغريب، دار الخريجي، الرياض، ١٤٢٤هـ.
- (١٧) رعاية المسنين اجتماعياً، محمد فهمي، المكتب الجامعي، الإسكندرية، ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ.
- (١٨) رعاية المسنين في الإسلام، عبد الله السدحان، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ.

- (١٩) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- (٢٠) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار القلم، بيروت، ١٤٠١هـ.
- (٢١) صحيح سنن ابن ماجه، الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٨هـ.
- (٢٢) صحيح مسلم بشرح النووي، دار الخير، بيروت، ١٤١٤هـ.
- (٢٣) صفة الصفوة، ابن الجوزي، تحقيق محمود فاحوري، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
- (٢٤) عارضة الأحوذى لشرح صحيح الترمذى، ابن العربي المالكي، دار الكتاب العربي.
- (٢٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- (٢٦) فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر العربي، ١٤٠٣هـ.
- (٢٧) لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١	المقدمة
٦	أولاً: التعريف بمرحلة الشيخوخة
٨	ثانياً: التغيرات التي تحدث في مرحلة الشيخوخة
١٣	ثالثاً: مقدمات أساسية لفهم مرحلة الشيخوخة في الإسلام
٢٤	المراجع
٢٦	الفهرس